العدد 1563 - السنة السادسة
الجمعة 7 رجب 1434 - الموافق 17 مايو 2013
Friday 17 May 2013 - No.1563 - 6th Year

استجلاء نص «الطريق» للشاعر عبدالله سعيد

بلادي .. يا بلادي .. يا بلادي والطريق منين
عجزت ألقى مكان يلم خطواتي ويقراني
لمين أبكي بعد رب البرية وأشتكيك لمين؟
بكيت وجيه ناس ولا بكى واحد على شاني
بلادي .. والطريق اللي حداني للسفر تنين
يبث النار من فم المسافة لين تصلاني
كذا ترضين ؟ أصير إنسان يبكي .. ينكسر ويلين
ليا شفت السنين تمر واللحظة تعداني
منافي في منافي والفرج في صومعة بعدين
يفر المسبحة ويقبّل المحراب وحداني
بلادي .. ما عرفتيني ؟ وأنا اللي جلت صدرك لين
مليت الخبت من دمع الرحيل وغيمة أحزاني
هنا في ربعك الخالي مكبّل من ثلاث سنين
هنا ..والبرد يجلد عبرتي ويشل وجداني
من أيام " أيدمة" لـ"الخن" لأول جرح في " يبرين"
وأنا أهذي بالطروق المبكيات وسرب قيفاني
بلادي كيف أخاف من الدما ؟ وأخشى من السكين ؟
مادام المشكلة بيني وبين تراب وديانى
ورب المصحف إني رحت أقسم خافقي نصفين
عشان أحيا بنصف وللحبايب نصفه الثاني
عشان أخرج من أفواه الضلال وكلمة "المسكين"
وأطمن خاطر أمي واستقيم بنظرة إخواني
بلادي .. يا بلادي .. يا بلادي .. والبقية وين؟
عساي ألقى مكان يشتت أحزاني ويقراني

الخيوط المتناثرة في النص خيوط ذات صلة قوية بدلالة الموت !!

اجتمعت في هذا الكلام إيحاءات الذبول والموت من السنين التي تمر أمامه!!

دلالات الموت في النص الشعري:

قبل الدخول إلى النص والسفر بين منحنياته ،هناك عنصر لا بد من الوقوف عنده، حيث يساعدنا فيما بعد على فهم الأبعاد النفسية للقصيدة، وهو دلالات الموت في النص الشعري ، وذلك حين الوقوف عند البيت السابع الذي يعتبر بمثابة المفتاح الفني لفهم هذه الدلالات:

هنا في ربعك الخالي مكبّل من ثلاث سنين
هنا ..والبرد يجلد عبرتي ويشل وجداني

وذلك من خلال الوقوف عند مدلول البرد الذي يوحي بالشتاء ، والشتاء رمز للموت وبرودة العواطف والانكماش والتقوقع ، وقد أوضح هذا المراد الشاعر نفسه عندما قال: « والبرد يجلد عبرتي ويشل وجداني « غير أننا لو حاولنا لملمة هذه الخيوط المتناثرة في النص لوجدنا أنها خيوط ذات صلة قوية بدلالة الموت ، حيث يقول الشاعر في البيت الثاني « لمين أبكي .. وأشتكيك لمين؟ .. بكيت .. ولا بكى واحد على شاني « فالبكاء والشكوى مرتبطان بالإحساس بالموت وبرودة العواطف ، فالبكاء له صلة بالموت والشكوى مرتبطة بالشعور بالخمول وبرودة العواطف، ثم يقول في البيت الثالث «والطريق اللي حداني للسفر تنين .. يبث النار من فم المسافة لين تصلاني « حيث تتزاحم دلالات التنين والنار التي تبثها المسافة ثم تصلى الشاعر فيما بعد ، مما يؤزم لديه هذا الموقف الشعور بالتلاشي والموت ، وكذلك ما جاء في البيت الرابع « إنسان يبكي .. ينكسر ويلين ... ليا شفت السنين تمر واللحظة تعداني « فقد اجتمعت في هذا الكلام إيحاءات الذبول والموت من السنين التي تمر أمامه وهي تحمل في جريانها آماله ومستقبله وتتعداه في صمت من دون أن تلتفت إليه ، بالإضافة إلى الإنسان الذي يبكي ثم ينكسر ويلين كدلالة على إشرافه على الموت أكثر من مرة ، ثم يقول في البيت السادس « دمع الرحيل وغيمة أحزاني « إذ أن الدمع له ارتباط بالموت والرحيل موت آخر كذلك ، بالإضافة إلى علاقة الغيوم والأحزان بالموت والشعور بالكآبة والضياع ، ولم يقف الشاعر في الاسترسال حول هذه الدلالات عند هذا الحد ، حيث يقول في البيت التاسع « كيف أخاف من الدما ؟ وأخشى من السكين « إذ يؤكد حضور شبح الموت بهذه القوة في هذا البيت ، مع العلم أنه أعلن عدم خوفه من كل هذا ، لأن المشكلة لديه أكبر من ذلك ، لكن هذا الحضور بهذا التكثيف يرسخ من دلالات الموت في النص ، وأنه انتقل بهذا الحضور من كون الموت كان يشكل لديه أزمة نفسية يعانيها الشاعر إلى تجسيد شاخص أمام العيون من خلال لمعان السكين وجريان الدماء بعد ذلك .

إن هذا الحضور لدلالات الموت في القصيدة سيشكل لنا النقطة التي سننطلق منها لفهم العلاقة بين أبيات القصيدة ، لكن بمعزل عن الدخول في هذه الجدلية رغبة منا بفتح آفاق هذا النص بشكل أكثر رحابة

استجلاء نص « الطريق « للشاعر عبد الله سعيد

نص « الطريق « للشاعر عبد الله سعيد يحمل في طياته عذاب الإنسان وأزمته مع الحياة كوطن وكمعيشة ، وتتضح هذه الحالة من النداء المتكرر الذي أطلقه الشاعر في بداية البيت الأول « بلادي .. يا بلادي .. يا بلادي « والذي كرره في آخر القصيدة ، وكأن النداء في الأول محاولة لبث روح الاستيقاظ ، غير أن تداعيات المشاهد في النص حولت ذلك النداء إلى صراخ ممتد كما في البيت الأخير، كإعلان من الشاعر أن الشقاء والتعب في الحياة الوجه الآخر للإنسان في هذه الدنيا ، كما أن هذا النداء يوحي بأن وطنه لم يحرس عليه أو لعله مشغول عنه بغيره

بلادي .. يا بلادي .. يا بلادي والطريق منين
عجزت ألقى مكان يلم خطواتي ويقراني

يبدأ النص بتكرر النداء، سواء من خلال حرف النداء المحذوف بسبب ضرورة الالتزام بالوزن الشعري أو تتابع حرفي النداء « يا «بعد كلمة « بلادي « وذلك من أجل التنبيه ولفت الأنظار إليه نتيجة لشعوره بالشتات وضياع الطريق من تحت أقدامه، وهذا التشتت الحاصل للشاعر أفقده الشعور بالأمان والاستقرار، حيث كانت مفردة « خطواتي « توحي بعدم الثبات ، وكلمة «يقراني « تدل على عدم الشعور بالأمان وأنه لا أحد في هذا الوطن قادر على فهم الشاعر واستيعابه ومعرفة همومه ، وذلك أنه ضل الطريق، ولم يجد مكانًا قادرًا على لملمة خطواته المبعثرة

لمين أبكي بعد رب البرية وأشتكيك لمين ؟
بكيت وجيه ناس ولا بكى واحد على شاني

تنتقل معه الحالة من تأزم في علاقته مع الأرض ، إلى تأزم في علاقة أخرى لكنها علاقة مع من يسكنون الأرض» بكيت وجيه ناس ولا بكى واحد على شاني « ، وهنا ينتقل معه الشعور بالتشت والتشظي من الخارج الناتج من علاقته بالمكان ، إلى تشتت داخلي نابع من إحساسه بالوحدة والضياع ، لقد كان الملمح واضحًا في آخر البيت الأول ، لكنه تركز في هذا البيت « لمين أبكي - وأشتكيك لمين - بكيت وجيه ناس ولا بكى واحد على شاني « حيث يتجذر إحساسه بالألم من خلال عمليتي البكاء والشكوى التي خلقت لديه هذا الشعور بالانعزالية المكانية والنفسية في آن .

بلادي .. والطريق اللي حداني للسفر تنين
يبث النار من فم المسافة لين تصلاني

النص في الأساس مرتبط بموقف الإنسان الذي هو الشاعر مع الأرض ، والتي كان يسميها في هذا النص بمسميات عدة « بلادي « التي تكررت معه أكثر من مرة ، وكذلك « منافي - تراب وديانى « حيث دلت المفردة الأولى على ارتباطه بالأرض ومدى تعلقه بها ، بينما دلت العبارتان التاليتان على تعامل هذه الأرض القاسي مع ابنها الإنسان الذي يعيش فيه فيها ، كما سيمر معنا فيما بعد

كذا ترضين ؟ أصير إنسان يبكي .. ينكسر ويلين
ليا شفت السنين تمر واللحظة تعداني
منافي في منافي والفرج في صومعة بعدين
يفر المسبحة ويقبّل المحراب وحداني

وعلى هذا الأساس ، وتحت وقع شعوره بهذا التهميش يتوجه الشاعر بتوجيه خطاب اللوم والعتب المعجون بهموم الحسرة إلى بلاده ، حيث حولته هذه الأرض إلى إنسان « يبكي .. ينكسر ويلين « أي أنها خلقت منه إنسانًا محطمًا ، يرى كل شيء يمر أمامه ، السنين التي تدل على عمره وسنوات شبابه ، واللحظة التي رمز فيها للأمل والمستقبل « تتعداه « فلا هو الذي استوقفها ، ولا هي التي أخذت بيديه إلى بر الأمان

لهذا شعر الإنسان / الشاعر بأن هذه الأرض ، والتي هي في الأساس بلاده وتراب وديانه كما قال عنها بأنها مجموعة من المنافي التي حكمت عليه بالغربة والضياع ، ولم تمنحه إلا الوعود الزائفة والآمال الكاذبة « والفرج في صومعة بعدين « ، أي أنه لا أمل ولا فرج في سياسة ديدنها ثقافة التسويف ، مما خلق لدى الشاعر الانكفاء على الذات والشعور بالحسرة « يفر المسبحة ويقبل المحراب وحداني « كدلالة على الشعور بالإفلاس والانكفاء على الذات بعد ذلك

بلادي .. ماعرفتيني؟ وانا اللي جلت صدرك لين
مليت الخبت من دمع الرحيل وغيمة احزاني
هنا في ربعك الخالي مكبّل من ثلاث سنين
هنا ..والبرد يجلد عبرتي ويشل وجداني
من أيام «ايدمة» لـ«الخن» لأول جرح في «يبرين»
وأنا أهذي بالطروق المبكيات وسرب قيفاني

في هذه الأبيات ينتقل الشاعر من التعميم إلى التخصيص - إذا كان بالإمكان استخدام مثل هذه المسميات - حيث تتحدد ملامح الغربة المكانية التي دفعت الشاعر لكتابة هذا النص ، وذلك عندما أورد بعض أسماء الأماكن التي مر بها في طريق اغترابه في وطنه وغربته بين مواطنيه ، إذ ذكر عددًا من الأماكن مثل « يبرين « (1) وهي هجرة تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من المملكة العربية السعودية ، وكذلك « الخن « (2) وهي أيضا هجرة تبعد عن هجرة « يبرين « حوالي 35 كيلو ، واقعة جنوب شرق البلاد ، بالإضافة إلى « يدمة « (3) والتي تنطق كذلك بـ « أيدمة " وهي هجرة كذلك تقع في الجنوب ، ونلحظ من خلال هذا التشتت المكاني الواضح الذي عاشه الشاعر من خلال اعتماده على مفردة لا تكاد معروفة في مناطق أخرى ، وهي الخبت (4) وهي كلمة سواحلية تعني المساحات الواسعة من الأراضي الخالية ، ليتوافق هذا الجفاف بالجفاف ، أي جفاف الأراضي الخالية المقفرة بجفاف الروح من خلال العيش في أماكن متباعدة وهو بعيد عن أمه وأخوانه وخلانه ، وكأن البلاد تحولت في عيون الشاعر إلى " ربع خال " من المشاعر والحياة ، وليس معه في هذا الطريق الطويل إلا قصّاصات قصائده التي يبثها هنا وهناك

بلادي كيف أخاف من الدما ؟ وأخشى من السكين ؟
مـــا دام المشكلة بيني وبين تـــراب وديـاني

هذا الشعور بالتشظي ، والذي لمسناه في نص الشاعر ، ها هو يصدمنا بالاعتراف فيه في هذا البيت « ما دام المشكلة بيني وبين تراب وديانى « ، لهذا يعلن هذا السؤال التهكمي « كيف أخاف من الدما ؟ وأخشى من السكين ؟ « لأن المشكلة لديه أكبر من كونها نتاجًا لهموم خارجية « الدما - السكين « بقدر ما هي هم داخلي سببه الشعور بالاغتراب والتشظي في وطنه ، المتجاذب ما بين الشعور بالمواطنة أو الإحساس بعذابات المغترب النازح في بلده وبين مواطنيه

ورب المصحف إني رحت أقسم خافقي نصفين
عشان أحيا بنصف وللحبايب نصفه الثاني
عشان أخرج من أفواه الضلال وكلمة «المسكين»
وأطمن خاطر أمي واستقيم بنظرة إخواني

لذا من الطبيعي أن يلجأ الشاعر إلى القسم « ورب المصحف « لخلق حالة من الاتزان بينه وبين واقعه ، ومن ناحية ثانية ، ولعلها الأقوى في هذه المعادلة ، وهي تأكيد ارتباطه بالناس بعد أن وجد الشتات مصيرًا ينتظره في كل طريق وفي كل مكان ، لا سيما الناس المقربون إلى قلبه ، والذين وصفهم بـ « الحبايب « مقسمًا قلبه بين الحياة وبين الحب ، بالإضافة إلى رغبته بالخروج من دوامة الضياع ونظرة الآخرين الذين يمثلون المجتمع ونظرته للإنسان العاطل عن العمل ، حيث اختصر الشاعر هذه النظرة بمفردة واحدة وهي مفردة « المسكين « الموحية بالتهميش والشفقة والنظرة الدونية ، ولعل الأهم في كل هذه المعادلة الاجتماعية بعد ذلك أيضا قول الشاعر : « وأطمّن خاطري أمي واستقيم بنظرة أخواني « باعتبار أنهم مجتمعه الصغير ، والعنصر الأهم في حياته ، فهو يعمل على تحقيق الأمان لوالدته من خلاله « وأطمّن خاطر أمي « وكذلك لكي يكون رجلاً وفق الفهم النمطي للحياة في عيون أخوته « واستقيم بنظرة أخواني « لهذا كان من الضروري اللجوء للقسم بالله « ورب المصحف « لأن هذه المواقف التي أعلنها الشاعر في هذين البيتين مواقف مصيرية في حياته ، فكان لا بد عليه من تشديد إيضاح هذه المواقف بهذا القسم الغليظ

بلادي .. يا بلادي .. يا بلادي .. والبقية وين ؟
عساي ألقى مكان يشتت أحزاني ويقراني

لو حاولنا عقد مقارنة بين بيتي الاستهلال والخاتمة ، وخاصة فيما يتعلق في الشطر الأول من كلا البيتين ، حيث جاء الشطر الأول من البيت الأول « بلادي .. يا بلادي .. يا بلادي والطريق منين « وجاء الشطر الأول من البيت الأخير « بلادي .. يا بلادي .. يا بلادي .. والبقية وين ؟ « إذ كان الاستهلال إعلان بالرغبة باليقظة ، بينما كانت الخاتمة استسلام ورضوخ لديمومة الضياع ، وكأنه في آخر المطاف بدأ من حيث انتهى ، فقد كانت البداية « عجزت ألقى مكان يلم خطواتي ويقراني « ولم تكن النهاية ببعيد من هذا السياق « عساي ألقى مكان يشتت أحزاني ويقراني « ، ولو حاولنا بعد ذلك فك كلا الشطرين وتفتيت محتواهما ، لرأينا أن مع العجز نتجت الرغبة بلملمة الخطوات كما في البيت الأول ، بينما اقترن الترجي « عساي « بديمومة الشتات كما هو الحال في البيت الأخير ، وذلك أن هناك فرق بين « والطريق منين « التي في البيت الأول ، وبين « والبقية وين « كما هي في البيت الأخير ، لأن العبارة الأولى جاءت كرغبة في البحث وبث روح الاستيقاظ ، بينما العبارة الأخرى جاءت نتيجة لإحساس الشاعر بأنه لازال في منتصف الطريق وأن مشوار البحث لا زال ممتدًا أمامه ، وهو طريق طويل

هوامش : 1 - يبرين :هجرة تقع في الجزء الجنوبي الشرقي من المملكة العربية السعودية ، على بعد 300 كيلو جنوب محافظة الإحساء ، وعلى بعد 100 كيلو جنوب منطقة حرض .

2 - الخن : أيضا هي هجرة تبعد عن هجرة " يبرين " 35 كيلو ، واقعة جنوب شرق المملكة العربية السعودية وعلى بعد 300 كيلو عن محافظة الإحساء .

3 - يدمة : وتنطق « أيدمة " وهي هجرة تقع جنوب المملكة العربية السعودي وتبعد عن منقطة نجران 180 كيلو جنوب شرق .

4 - الحبت : كلمة سواحلية تعني المساحات الواسعة من الأراضي الخالية، وأكثر من يستخدم هذه الكلمة هم أهالي تهامة والجبال الغربية القريبة منها .

محمد مهاوش الظفيري

■ مجموعة من المنافي التي حكمت عليه بالغربة والضياع ولم تمنحه إلا الوعود الزائفة !!

■ هذه المواقف التي أعلنها الشاعر في هذين البيتين مواقف مصيرية في حياته !!

■ نص حمل في طياته عذاب الإنسان وأزمته !!

■ المشاهد في النص حولت النداء إلى صراخ ممتد !!

■ وجه خطاب اللوم والعتب المعجون بهموم الحسرة الى بلاده

عبد الله سعيد